في تاريخ المشكلة اللغوية

الاهتمام باللغة أمر تستدعيه ضرورة قائمة ، ذلك أن المشكلة اللغوية من المشكلات الخطيرة ، ومن أجل ذلك نشطت المجامع العلمية في الأقطار العربية في العمل على حل هذه المشكلة القائمة ، وتبرز المشكلة في أن العرب في يومنا هذا لا يتكلمون بالفصيح من العربية ، فالعامي الدارج هو المستعمل ، وأمر العامي مشكلة من المشكلات أيضاً ، فهناك لهجات مختلفة باختلاف البلاد ، ثم إن البلد الواحد مشتمل على لهجات وطرق في التعبير مختلفة أيضاً ، وربما صعب على العربي من شمالي العراق أن يفهم من قروي من سكنة الأهوار في الجنوبي من العراق

ومسألة تقريب العامية من الفصيحة أمر يتعلق بالزمن الطويل ، فليس من الممكن القيام بمشروع أو بحث للوصول الى هذا الهدف الخطير ، وأنا أقول : متعلق بالزمن ، لعلي أن خير الوسائل الكفيلة بتحقيق هذا هو نشر العلم والثقافة بين أبناء البلد الواحد ، بحيث يتيسر لجميع أبناء البلد قسط متساو من العلم والمعرفة ، ومن شأن هذا أن يعمل على رفع مستوى اللغة المستعملة والتي هي قريبة من الفصيحة ونستطيع أن ندلل على قربها من الفصيحة إذا نظرنا الى اللغة التي يستعملها المثقفون اليوم في محادثاتهم وفي استعمالاتهم اليومية ، فهي لغة في مجموعها تكاد تخلو من الألفاظ العامي الدخيل ، فمجموعة ألفاظها على العموم فصيحة ويبدو قربها من الفصيح اذا وازنا بين هذه اللغة التي يستعملها المثقف — وهو من أسرة جاهلة — واللغة التي يستعملها سائر أفراد أسرته والتي هي موغلة في العامية الدارجة

ولا بد أن نعرض لهذه اللغة القريبة من الفصيحة بالبحث ، والتي نحن سائرون اليها في مستقبلنا القريب أو البعيد لنحدد صفاتها وميزاتها التي تتميز بها ثم نخلص من ذلك الى البحث التأريخي لنقرر مرحلة من مراحل تاريخ العربية الطويل . فالتاريخ اللغوي من الأمور الغامضة ، ذلك أن الباحث لا يهتدي الى المراحل التطورية في هذا التاريخ الطويل وربما انقطعت عنه حلقات طويلة وضاع اثرها وبهذا فليس من الممكن رسم تاريخ محكم الحلقات لهذه اللغة ، فلقد ضاع من اصولها شيء كثير ، ومن اجل هـذا فهي بدع في اللغات الحية المتطورة في قوتها واصالتها وحيويتها وقابليتها في مسايرة الزمن وتطوره ولقد اثر عن أبي عمرو بن العلاء أنه قال : (ما انتهى اليكم مما قالت العرب الا أقله ، ولو جاءكم وافراً لانتهى اليكم علم وشعر كثير) [1]

وأنا افترض أن تكون هذه اللغة القريبة من الفصيحة ، والتي تكاد تخلو من أي لفظ دخيل عامي ، متخففة من قيود الإعراب فالكلمات فيها ساكنة الأواخر ، ولعل هـذه المرحلة مهمة في العود الى الفصيح المعرب كما هو الحال في اللغة المكتوبة والتي ورثناها في التراث العربي ، كما هو الحال في لغة القرآن الكريم

ولا بد أن نعرض للاعراب عرضاً تاريخياً فنقول : لقد احتفظت اللغة العربية الفصيحة بظاهرة الاعراب ، وهي من صفات العربية الموغلة في القدم في حين أن سائر اللغات السامية ـ عدا الاكدية ـ قد فقد الاعراب منذ اقدم العصور ، وقد دل على هذا الاعراب بقايا نجـدها في العبرية والحبشية [2] اما في اللغة الاكدية فقد عرفت الحركات الثلاث في البابلية في النصوص القديمة ، ثم تطورت هذه الحركات الثلاث وانتهت الى حركتين هما الضمة للرفع والفتحة للنصب والجر ، ولم تلبث هذه المرحلة طويلاً حتى تطورت الى مرحلة الحركة

(١) ابن الانباري ، نزهة الالباء ص ٣٣

(٢) Bergstraesser ، التطور النحوي ٧٥

الواحدة وهي الكسرة الممالة

ولعل علاقة اللغة النبطية بالعربية وقربها منها اوجد الاعراب من النبطية كما تؤيد ذلك النقوش التي عثر عليها وقد ذهب Noldke المستشرق الالماني الى أن النبط كانوا يستعملون الضمة في حالة الرفع ، والفتحة في حالة النصب والكسرة في حالة الجر ، ولا يعقبون هذه الحركات بالنون (١) وعدم وضع النون بعد الحركات يشبه ما هو شائع في قسم من لهجات العربية الدارجة ، ومن ذلك ما هو مستعمل في لهجة اهل الموصل في العراق ، وفي غير الموصل كما في الاقطار العربية الاخرى

ويرى المستشرق E. Littmann أن أواخر الكلمات في اللهجة النبطية قد يحدث فيها تغيير بحسب موضعها في الاعراب (٢) وللاعراب أثر في اللغة العبرانية يتبينه الباحثون في حالتي المفعول به وفي ضمير التبعية (٣) ، على أن هذا الأثر ضئيل جداً ، فقد أوشكت تخلو لغة العهد القديم من الأعراب غير أن علامة النصب في العبرية القديمة هي الفتحة الطويلة التي نشأ عنها حرف الهاء ، والهاء المتطرفة في هذه اللغة تشبه الألف اللينة ، ومن أجل ذلك تعامل معاملة أحرف المد ، وتظهر هذه في آخر الاسم المنصوب بنزع الخافض ، كما في آخر الظرف المنصوب (ليلا) (٤) وتعنى (ليل) ، و (عتا) (٥) وتعنى (حين) وكما

(١) Th. Noldke, Die Semitischen Sprachen. Leipzig 1899. S. 51 f.

(٢) E. Littmann Inscripitions Leiden 1914 P. 57 ff.

(٣) ولفنسون ، تاريخ اللغات السامية ص ١٠

(٤) تكتب الهاء في العبرية في آخر الاسم ولا تلفظ

(٥) ربما قابلت هذه الكلمة في العربية (حتى) فقد قرأ ابن مسعود (عتى حين) في قوله تعالى (ليسجننه حتى حين) (يوسف ٣٥) وهي لغة هذيل التي نهاه عمر أن يقرىء الناس بها أنظر الزمخشري ، الكشاف ٢/٦٨ ، مطبعة الاستقامة ١٩٤١ وقراءة ابن مسعود من شواذ القراءات ، أنظر ابن خالويه ، مختصر في شواذ القرآن

تلحق هذه العلامة الظروف، فانها تلحق المصدر فينصب كما هو في المفعول المطلق في العربية، ولكنها في هذه الحالة تكون متلوة بميم زائدة (للتمييم) الذي يقابل التنوين في العربية [1]، مثال ذلك (يومام) وتعني (يوماً) و (حنام) وتعني (مجاناً)، والمتتبع لشوارد النصوص في اللغة العبرية ربما وجد آثاراً تشير الى شيء يشبه الضمة والكسرة، ولعلها بقايا لضمة وكسرة كانتا مستعملتين في العبرية القديمة

ويعلل المحدثون — وجلهم من المستشرقين — ظاهرة الاعراب في العربية وفي سائر اللغات السامية بخلو هذه اللغات من ادغام للكلمات أي وصل كلمة باخرى لتتكون من الكلمتين كلمة واحدة لها معنى مركب منهما كما في اللغات الآرية [2] وليس من حجة علمية تاريخية تثبت صحة هذه الدعوى، والذي ثبت في التحقيق العلمي أن في العربية تراكيب كثيرة، وانها استفادت من التركيب لتكثير المعاني والمباني، وقد اعتمد البناء في العربية على التركيب بصوره المختلفة، وكان مذهب الخليل بن احمد أن الكلمتين اذا ركبتا ولكل منهما معنى وحكم أصبح لهما بالتركيب حكم جديد [3] وتبع الخليل في مقالته جمهور الكوفيين ومنهم الكسائي والفراء ومن أجل ذلك فليس عدم التركيب علة في الاعراب، وذلك لوجود التركيب والاعراب في العربية في الوقت نفسه

ويختلف الرأي في دلالة الحركات على المعاني الاعرابية بين القدماء والمحدثين في اللغة العربية. وأول من أشار الى هذه المشكلة من القدامى هو الخليل بن احمد، ذكر سيبويه [4] أن الخليل قال: « ان الفتحة والكسرة والضمة زوائد وهن يلحقن الحروف، ليوصل الى

---

(١) أنظر (النون في العربية) الجزء الثالث من مجلة كلية الآداب والعلوم ١٩٥٨

(٢) Carl Brockelmann, Grundriss, I. S. S.

(٣) ابن جني، سر صناعة الاعراب — حرف الكاف —

(٤) سيبويه، الكتاب ٢/٣١٠

التكلم به والبناء هو الساكن لا زيادة فيه ولعل الجدل في دلالة هذه الحركات على المعاني الاعرابية وعدم دلالتها على ذلك، دار بين تلاميذ سيبويه والكسائي فذهب جمهورهم مذهب الاول، وذهب آخرون مذهب الثاني

ويمثل رأي الذاهبين الى أن الحركات دوال على معان اعرابية، أبو القاسم عبد الرحمن ابن اسحق الزجاجي، فقد نقل السيوطي في الاشباه والنظائر [1] قوله: « إن الأسماء لما كانت تعتورها المعاني وتكون فاعلة ومفعولة ومضافة ولم يكن في صورها وابنيها ادلة على هذه المعاني، جعلت حركات الاعراب تبين عن هذه المعاني وتدل عليها ليتسع لهم في اللغة ما يريدون من تقديم وتأخير عند الحاجة »

ويمثل رأي الطائفة الأخرى قطرب أبو علي محمد بن المستنير وهو تلميذ سيبويه، قال قطرب: إنما أعربت العرب كلامها، لأن الأسم في حال يلزمه السكون للوقف، فلو جعلوا وصله بالسكون وأمكنهم التحريك، جعلوا التحريك معاقباً للاسكان، ليتبدل الكلام ألا تراهم بنوا كلامهم على متحرك وساكن، ولم يجعلوا بين ساكنين في حشو الكلمة، ولا في حشو بيت ولا بين احرف متحركة، لأن في اجتماع الساكنين يبطئون في كثرة الحروف المتحركة، ويستعجلون، وتذهب الصلة في كلامهم، فجعلوا الحركة عقب الاسكان [2]

وفي هذا الرأي توضيح وإبانة لرأي الخليل الذي اسلفنا ذكره وممن ذهب مذهب قطرب من المحدثين الدكتور ابراهيم انيس، ولكنه حلا له أن يلتزم بالرأي مفصلاً فيه وكأنه أول من قال بهذا الرأي [3] والوجه في هذا الرأي أن هذه الزوائد الاعرابية يلجأ اليها لامور فنية (Technique)، وهو أن الموسيقى والانسجام يستدعيان هذه الزوائد

(١) السيوطي، الاشباه والنظائر ١/٧٦ - ٧٨
(٢) المصدر السابق ١/٧٩
(٣) ابراهيم أنيس، من اسرار اللغة ص ١٤٢

الإعرابية ، ومعنى هذا أنه ليس للحركات الاعرابيةمدلول ، وان الحركات لم تكن تحدد المعاني في اذهان العرب الاقدمين ، وهي لا تعدو أن تكون حركات يحتاج اليها في كثير من الأحيان لوصل الكلمات ببعضها [١] ويرى الدكتور انيس أن « النحاة قد ابتكروا بعض ظواهر الاعراب . وقاسوا بعض الاصول ، رغبة منهم في الوصول الى قواعد مطردة منسجمة » [٢] ثم انه يفترض افتراضاً لا يقوم على أساس علمي تاريخي ، فيقول : « ولعلهم تأثروا بما رأوه حولهم من لغات كاليونانية ، ففيها يفرق بين حالات الاسماء التي تسمى « Cases ويرمز لها في نهاية الاسماء برموز معينة » [٣] ولقد فاته أن اليونانية تختلف نحواً وطبيعة عن العربية ، ولم يكن واضع النحو عارفاً أو متأثراً باليونانية بأي وجه من الوجوه . والقول بالتأثر باليونانية في الثقافة العربية الاسلامية شائع عند الكتاب المصريين ، فالى مثل هذا ذهب كل من الدكتور طه حسين والأستاذ أحمد أمين والدكتور ابراهيم مدكور [٤] والدكتور ابراهيم سلامة [٥] وقد بني ابراهيم مدكور رأيه في تأثر النحو العربي بمنطق أرسطو على أمور :

(١) اعتبار القياس أصلاً من أصول النحو وتحديده ووضعه على نحو ما حدد القياس المنطقي ثم التشابه بين ما جاء من تقسيم الكلمة عند سيبويه الى اسم وفعل وحرف وما جاء من تقسيمها عند ارسطو الى اسم وفعل وأداة

(٢) ظهور النحو السرياني في مدرسة نصيبين في القرن السادس الميلادي على مقربة من

(١) المصدر السابق ص ١٥٨

(٢) المصدر السابق ص ١٣٩

(٣) المصدر السابق ص ١٧١

(٤) ابراهيم مدكور مجلة مجمع فؤاد الأول للغة العربية ١٩٤٨ — ١٩٤٩ (منطق أرسطو والنحو العربي)

(٥) ابراهيم سلامة . بلاغة ارسطو بين العرب واليونان

النحاة العرب الأولين ، ثم ترجمة عبد الله بن المقفع لمنطق أرسطو التي تعدكما يقول ثروة جديدة نقلت الى العالم الاسلامي ، ثم تلمذة بعض السريان على الخليل بن أحمد كحنين بن اسحاق الطبيب السرياني المعروف الذي كان له أثر في نقل علوم اليونان وقرر الدكتور أن حنيناً قد عاصر الخليل وسيبويه ، وليس مذكور أول من ذهب الى هذا ، فقد قال بهذه المقالة قدماء ومحدثون

ومن القدامى ممن ذهب الى هذا ابن أبي أصيبعة في (عيون الانباء) [1] ونقل هذه الرواية القفطي [2] ، وقد ذهب الأستاذ أحمد أمين هذا المذهب من المحدثين [3] ، ورد هذه الأقوال يقوم على ان الخليل لم يعاصر حنيناً فوفاة الخليل كانت في سنة ١٨٠ أو قبل ذلك أو بعده بقليل ، وان ولادة حنين لم تكن قبل سنة ١٩٤ ، فلم يدرك إذاً حنين الخليل ولا رآه ، والزعم باطل من أساسه والقول بهذا التأثر نتيجة تقليد هؤلاء المحدثين للمستشرقين في أقوالهم ، فالى مثل هذا ذهب (دي بور) في تاريخ الفلسفة في الاسلام [4]

ويستدل الدكتور ابراهيم أنيس بخلو اللهجات الاقليمية الحديثة من الاعراب على عدم شيوعه في اللغة العربية في مراحلها الأولى [5] ، على اننا لا يمكننا أن نجعل من خلو اللهجات الدارجة من الاعراب دليلاً على ان الاعراب ظاهرة لم تكن موجودة في العربية الاولى [6] ، وقد رأينا أن اللغات السامية جميعها كانت معربة ثم زال اعرابها في العهود التي تعاقبت على مراحلها الأولى وقد أطال الدكتور علي عبد الواحد وافي في الرد على

(١) ابن أبي اصيبعة ، عيون الانباء ١/ ١٨٤

(٢) القفطي ، اخبار العلماء باخبار الحكماء ١١٧

(٣) أحمد أمين ، ضحى الاسلام ١/ ٢٩٨

(٤) دي بور ، تاريخ الفلسفة في الاسلام

(٥) ابراهيم أنيس ، من اسرار اللغة ص ١٣٩

(٦) علي عبد الواحد وافي ، فقه اللغة ص ١٣

زميله الدكتور أنيس في كتابه « فقه اللغة »

وقد عرض الأستاذ ابراهيم مصطفى الموضوع نفسه ، فقرر أن الحركات دوال على معان ، بل ان من أصول العربية الدلالة بالحركات على المعاني ، ثم هو يقول : « وما كان للعرب أن يلتزموا هذه الحركات ويحرصوا عليها كل الحرص ، وهي لا تعمل في تصوير المعنى شيئاً ونحن نعلم أن العربية لغة « الايجاز » وأن العرب كانوا يتخففون ما وجدوا السبيل الى ذلك ويحذفون الكلمة اذا فهمت والجملة اذا ظهر الدليل عليها ، والاداة اذا لم تكن الحاجة ماجئة اليها وعنده أن الفتحة ليست علامة اعراب ، ولا دالة على شيء ، وانما هي الحركة الخفيفة المستحبة عند العرب ، فهي بمثابة السكون في لغته العامة [١] ، وأما الضمة فهي علم الاسناد أما الكسرة فانها علم الاضافة [٢] ورأى الأستاذ ابراهيم مصطفى في دلالة الفتحة غريب ، فقد دلت المقارنات على أن الفتحة وجدت في حالة النصب في كثير من اللغات السامية ، ولم يكن هناك من سبب للفتحة « المستحبة » كما أسماها ويرى الأستاذ Marcel Cohen أن هذه القواعد المتشعبة الدقيقة وخاصة قواعد الاعراب لم تكن مراعاة الا في اللغة الفصيحة الادبية أما لغة التخاطب ، فلم تكن معربة [٣] وهو يستدل على ذلك بأن قواعد هذا شأنها في التشعب والدقة وصعوبة التطبيق وما تتطلبه من الانتباه وملاحظة عناصر الجملة وعلاقة بعضها ببعض ، كل هذا غير ممكن في لغة التخاطب ، وانما هو من اختصاص اللغة الفصيحة ، لغة الصفوة المهذبة أما الأستاذ (فك) المستشرق الألماني فيرى أن الحركات صفة من سمات العربية ، وسمة من أقدم تقاليدها

(١) ابراهيم مصطفى ، احياء النحو •

(٢) المصدر السابق ٨ — ١

(٣) M. Cohen, Les Langues du monde عن فقه اللغة للدكتور علي عبدالواحد وافي ص ١٣٠ .

اللغوية ، والتي فقدت في أخواتها الساميات باستثناء البابلية القديمة [١] وعنده أن العربية حافظت في مختلف عصورها على هذه الظاهرة بالرغم من ظهور اللحن واللهجات الاقليمية في الحواضر

وأريد الآن ان أبسط رأياً ، وهو أن العربية التي ورثناها ، والتي نعرف من أمرها الشيء الثابت الصحيح ، لا تتعدى الإسلام في التاريخ الزمني كثيراً ومعنى هذا أن العربية الممثلة في لغة التنزيل ، هي العربية التي نقيم عليها البحث والدرس ، وما العربية الجاهلية الا شيء من هذه العربية الاسلامية ، ولا أريد أن أقول بنظرية الانتحال ، ففي الجاهلية أدب كثير فيه الصحيح وفيه الموضوع ، ولكني لا استطيع أن أجعل مادة للدرس والبحث ، هذه النصوص الجاهلية التي لا نعرف عن بدايتها و نهايتها كثيراً ، وأترك هذه النصوص الاسلامية وفي مقدمها كتاب الله والعربية — ممثلة في القرآن — لغة عالية سلخت من تاريخها مراحل طويلة ، حتى انتهت الى هذا الشكل من الكمال والبحث في تاريخ القرآن يدلنا على أن لغة القرآن قد طبعت العربية بطابع واضح مبين وقضت بذلك على آثار اللهجات الاقليمية وأريد أن أخلص الى أن هذه اللغة العالية قد ثبتت من أصول اللغة وقواعدها ، وانها التزمت الاعراب الذي لم يكن شائعاً ومستعملاً على نحو ما التزمت به نصوص القرآن وسنأتي على اثبات هذا الرأي ومعنى هذا أن العربية في لهجاتها المتعددة لم تكن متقيدة بهذه الضوابط الثقيلة ، ولكن هذه اللغة هي التي جعلت الاعراب السمة الملازمة للعربية ، والتي أريد لها أن تكون ملازمة

والبحث في تاريخ القرآن يدلنا على الجهود التي بذلت كي تسود لغة التنزيل في وضوحها والتزامها الاعراب ، فقد ورد أن عمر بن الخطاب سمع رجلاً يقرأ (عتى حين) في قوله تعالى

(١) يوهان فك ، العربية (ترجمة النجار) ص ٣

« ليسجننه حتى حين »[1] فقال : من أقرأك ؟ قال : ابن مسعود فكتب اليه : إن الله أنزل هذا القرآن عربياً ، وأنزله بلغة قريش ، فأقرئ الناس بلغة قريش ، ولا تقرئهم بلغة هذيل[2] وفي الأخبار أن عمر منع أن يؤخذ بقراءة جماعة من القراء

وما استطاعت لغة القرآن والحديث أن تأتي على اللهجات الدارجة المحلية ، أو قل على العربية المستعملة السهلة ، والتي تتخفف من قيد الضوابط الثقيلة ومن هنا فالعربية شفعية التعبير منذ أن كانت ، ذلك بأن فيها لغة فصيحة يتوخاها الكاتب في كتابته ملتزمة بضوابط الاعراب ، ولغة أخرى يتقولها الناس ويستعملونها دون أن يلزموا أنفسهم بعناء هذه الضوابط ، وربما تعدى الأمر مسألة الإعراب الى الألفاظ نفسها ، فقد يكون في الفاظ الثانية ما هو بعيد عن العربية ، وأنه قد دخل فيها نتيجة اتصال العرب أنفسهم بغيرهم من الاقوام والاتصال حاصل في كل عصر ، فالعرب في أطراف الجزيرة قد تهيأ لهم أن يتاخموا أقواماً غيرهم ، فلم تسلم بذلك سليقتهم ومن أجل ذلك حرص عمر على الأخذ بقراءة تعتمد على لغة قريش ، والى مثل هذا كان يرمي عثمان من جمعه القرآن ليكون المسلمون مجتمعين على قراءة واحدة فينبذوا ما كان عندهم مما هو مغاير لما اتفق عليه ولا يعدم الباحث ان يجد في كتب التفسير والقراءات وكتب الغريب وكتب النحو من هذا الباب شيئاً كثيراً من القراءات ومرد ذلك أن الناس قد فطروا على أساليب في التعبير خاصة بهم ، وبذلك قرأوا وأن طائفة كبيرة من هذه القراءات الخاصة اعتبرت من شواذ القراءات والشواذ من القراءات هي ما خلا تلك التي انتشرت بواسطة القارىء المشهور ابن مجاهد المتوفى سنة ٣٢٢ كقراءة ابن مسعود وقراءة أبي بن كعب واختيار الحسن البصري وامثالهم وهي تعد في باب الشواذ[3] ، وقد الف غير واحد من الاقدمين في موضوع

(١) يوسف ٢٥

(٢) الزمخشري . الكشاف (٣/٦٨)

(٣) ابن خالويه ، مختصر في شواذ القرآن (المقدمة)

الشواذ كالعكبري في كتابه اعراب القراءات الشاذة ، والأهوازي وابن عطية والمهدوي ولم نعرف مؤلفات هؤلاء ولم يصل الينا منها شيء ، كما اندثر كتاب الاوامع في القراءات وكتاب المحتوى للداني

ومن أمثلة هذه الشواذ التي لا تدل إلا على اللهجات الدارجة أو اللهجات الاقليمية ما جاء من شواذ سورة الفاتحة :

قرأ أبو السوار الغنوي « هياك »[1] بالهاء المكسورة في الآية الخامسة « اياك نعبد » وقد قرأ عمرو بن فايد « إياك » بالتخفيف ، وقرأ جناح بن حبيش « نِستعين » بكسر النون[2]

وجاء من شواذ البقرة : قراءة يحيي بن وثاب : « ولا تِقربا هذه الشجرة » بكسر التاء ، وقرأ أبو السمال « هذه الشِجرة » بكسر الشين ، وقد قرئت « هـــذه الشِيرة » بكسر الشين والياء حكاه أبو زيد[3] وقراءة الشجرة بابدال الياء من الجيم إثبات للهجة من اللهجات التي تلتزم هذا الابدال الذي ما زال حاصلاً في لهجات القرويين في جنوبي العراق وقد قرىء « بين المرِّ وزوجه » بدون همز مع تشديد الراء[4]

وقرأ مسلمة بن محارب « بعولهن » من قوله تعالى : « وبعولتهن احق بِردهِن » بجزم التاء[5] ، ومعلوم أن « البعولة » جمع « بعل » كما ان « السهولة » جمع « سهل » وعندي أن اختلاف القوم في صيغ الجموع ، راجع الى اللهجات الاقليمية ، ومعنى ذلك

(١) المصدر نفسه (شواذ سورة الفاتحة)

(٢) المصدر نفسه

(٣) المصدر نفسه (شواذ سورة البقرة)

(٤) المصدر السابق (شواذ سورة البقرة)

(٥) المصدر السابق

ان كل قبيلة ألفت صيغة من صيغ الجمع لاسم معين ، في حين أن القبيلة الأخرى ألفت صيغة أخرى

وجاء في شواذ سورة المائدة قراءة بعضهم « لعباً » بكسر اللام واسكان العين في قوله تعالى : « واذا ناديتم الى الصلاة اتخذوها هزواً ولعباً »

وجاء في شواذ سورة الاعراف « الجُمَّل » في قوله تعالى : « حتى يلج الجمل في سم الخياط » بضم الجيم وتشديد الميم وفتحها ، وهي قراءة ابن عباس [٢] ، ومعلوم أن صيغة (فُعَّل) من صيغ جموع التكسير بضم الفاء وفتح العين وتشديدها ، لا يكون مفردها إلا فاعلاً مثل « راكع » وجمعها « رُكَّع » ، في حين أن مفرد (جُمَّل) هو « الجُمْل » بضم فإسكان ومعناه الحبل [٣] وقد قرأ أبو السمال (الجَمْل) بفتح الجيم واسكان الميم [٤]

ومن شواذ سورة طه قراءة عكرمة « اهس » [٥] بالسين في قوله تعالى : « اهش بها على غنمي » .

ومن شواذ سورة الأنبياء قراءة ابن عباس « حضب » [٦] بالضاد في قوله تعالى : « انكم وما تعبدون من دون الله حَصَب جهنم » ، وقرىء « حصْب » باسكان الصاد ، وقرىء « حطب » بالطاء

---

(١) المصدر السابق (شواذ سورة المائدة)

(٢) الزمخشري ، الكشاف ٢/١٠٣ ؛ وانظر اللسان مادة « جمل »

(٣) حدث في انجيل متي ٩/٢٤ تصحيح مثل هذا بين دلة « الجمل » على الحبل دون الحيوان المعروف انظر : Bar Bahlūl, Lexicon 500.

(٤) ابن خالويه ، مختصر في شواذ القرآن

(٥) المصدر السابق (شواذ سورة طه)

(٦) الزمخشري ، الكشاف ٣/١٢٦

ومن شواذ سورة الحج جاء في كلمة « صلوات » احدى عشرة قراءة [١] في قوله تعالى : « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله » والقراءات هي « صَلَوات » بفتحتين وهي « صُلُوات » بضمتين على قراءة أبي العالية والكلبي والضحاك ، و « صُلْوات » بضم فإسكان على قراءة جعفر بن محمد وهي (صُلون) بضم الصاد فلام فواو ونون و « صُلوب » بالباء ، و « صلْوت » بفتح فإسكان ، و « صِلوات » بكسر فإسكان و « صُلْوات » بضم الصاد واسكان اللام وثاء مثلثة في الآخر و « صلوثا »[٢] بثاء في الآخر مع الف الاطلاق والكلمة جمع صلاة وهي تعني الكنيسة والكلمة سريانية [٣] بخلاف ما ذهب اليه الزمخشري من أنها عبرانية ، وتذييل الكلمة بالالف بقصد التعريف ولعل صيغ جموع التكسير يمكن أن ترد الى صيغ محدودة ، وذلك أن بعضاً منها يحصل من صيغة أخرى باستخدام المد مثلاً ، فكلمة « تارة » تجمع على « تِيَر » ، ولكنها تصبح « تِيار » باطلاق الفتحة [٤] . وهذا يدل على أن صيغ جموع التكسير وصيرورتها على هذه الكثرة ناتج عن اللهجات الاقليمية ، اذ من المعلوم أن اقليماً من الاقاليم يطيل في الحركات حتى تصبح مداً ، ومن هذه أيضاً « أسُدْ » بضم الهمزة واسكان السين أو ضمها ، فاذا اشبع الضم على السين صار مداً وصار الكلمة « اسود » ، ومثل هذا « احبة » و « احباء » وكثير غيره

ويدلنا على اشارة هذه الصيغ الى موضوع اللهسات ، ما يوجد في اللغة الحبشية من

(١) ابن خالويه ، مختصر شواذ القرآن (شواذ سورة الحج)

(٢) الزمخشري ، الكشاف ٣/ ١٦

(٣) القرداحي ، اللباب مادة (صل)

(٤) الجوهري ، الصحاح مادة (تير)

صيغ جموع التكسير ودلالتها على الموضوع نفسه [١]

ونستطيع أن نوجز أن القراءات في القرآن تقوم على تغيير في الحركات وتغيير في الابنية والصيغ وتغيير في الأصوات وتغيير في الألفاظ ، ومجموع هذا يدل على أن طرق التعبير الخاصة وجدت طريقها الى لغة التنزيل ، ولم تجد في ذلك جهود التوحيد والقراء يختلفون حتى في موضوع الإعراب الذي التزمه جميعهم ، فهذا يرفع ما ينصبه ذاك ، وذاك يخفض ما يرفعه هذا [٢] . وقد حمل هذا على انه خطأ من كتاب الوحي ، فقد روى أبو معاوية محمد بن خازم التميمي السعدي المتوفى سنة ١٩٢ عن هشام بن عروة بن الزبير المتوفى سنة ١٤٦ عن ابيه عن عائشة انها قالت : ثلاث احرف في كتاب الله هن من خطأ الكاتب وهي قوله تعالى : « إن هذا لساحران » [٣] ، وفي قوله تعالى : « ان الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون » [٤] ، وفي قوله تعالى : « لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما انزل اليك وما انزل من قبلك ، والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة » [٥] وقد حقق النحويون في حديث عائشة حول غلط الكاتب ، وحديث عثمان في قوله « أرى فيه لحناً » ، فاعتلوا لكل حرف منها ، واستشهدوا الشعر ، فقالوا في (ان هذا لساحران » هي لغة بلحارث بن كعب [٦] ، فهم يقولون : « مررت برجلان » ، و « قبضت منه درهمان » و « جلست بين يداه » و « ركبت علاه » وانشدوا لهوبر

Dillman : Grammatik der Gelhiopischen Sprache P. 537 (١)

(٢) ابن قتيبة ، تأويل مشكل القرآن ١٩

(٣) سورة طه ٦٣

(٤) سورة المائدة ٦٩

(٥) سورة النساء ١٦٢

(٦) ابن قتيبة ، تأويل مشكل القرآن ٣٦

الحارثي [١] :

تزود منـــا بين أذناه ضربة　　　دعتــه الى هابي التراب عقيم

كما اعتلوا لسائر المواضع السابقة علة مناسبة

وشيوع اللحن في مختلف الطبقات ، دليل على أن هذا الأعراب ثقيل لا تحتمله سليقة العرب اللغوية ، وكان ذلك في صدر الإســلام وقبل أن يتم اختلاط العرب بغيرهم ذلك الاختلاط العظيم الذي تم في العصور المتأخرة ، ثم أن شيوع اللحن لم تسلم منه طبقة المثقفين ولا العلية من القوم ولا العلماء ، فلم تسلم لهشيم بن بشير محدث أهل العراق سليقته اللغوية ، فكان يلحن في كلامه ويشير الجاحظ الى مخالفة المحدثين ما التزم من قواعد الاعراب [٢]

وكان عبد الملك بن مروان يحذر أبناءه من اللحن ، وكان يقول لهم : « إن اللحن في منطق الشريف أقبح من آثار الجدري في الوجه ، وأقبح من الشق في ثوب نفيس [٣]

وشيوع اللحن في زمان عمر بن الخطاب معروف ، فقد روى أن عمر سمع اعرابياً يقرأ قوله تعالى : « إن الله بريء من المشركين ورسوله) بجر رسوله فنبهه على الخطأ ، وكان ذلك سبباً في وضع النحو إن صحت الأخبار [٤]

والأخبار في وضع النحو كثيرة لا مجال لذكرها هنا ، ولكنها في مجموعها تشير الى أن اللحن في هذه الفترة المتقدمة كان شائعاً ، وشيوعه في قراءة القرآن مما عجل في وضع هذه الضوابط النحوية للحفاظ على لغة التنزيل من العبث . وشيوع اللحن دليل أيضاً على ان

(١) أبو زيد ، النوادر ٥٨

(٢) الجاحظ ، البيان ٢/٥

(٣) ابن قتيبة عيون الأخبار ٢/١٥٣

(٤) ابن الأنباري ، نزهة الألباء ٤

للقوم لغة يتخففون فيها من الضوابط الثقيلة وهي اللغة المستعملة وهي لغة الكثير من الناس ، ولغة التخاطب في الحياة اليومية

على أن هذا اللغة العامة التي استعملها الناس لم تكن بعيدة عن لغة الكتابة في مادتها اللغوية ، وكأن من شرط هذه اللغة مجانبة الاعراب ، والى هذا يشير الجاحظ في قوله : « وإن وجدتم في هذا الكتاب لحناً أو كلاماً غير معرب ، ولفظاً معدولاً عن جهته ، فاعلموا اننا تركنا ذلك ، لأن الاعراب يبغض هذا الباب ويخرجه عن حده الا أن احكي كلاماً من كلام متعاقلي البخلاء واشحاء العلماء كسهل بن هرون وأشباهه »[1]

والمشكلة اللغوية قائمة في عصرنا الحاضر كما أسلفنا ، وذلك لأن العربية الفصيحة المكتوبة هي غير العربية المستعملة في التخاطب وغير اللهجات الدارجة التي لم ترقَ الى لغة المثقفين ، وهي في مادتها نماذج متأخرة متدهورة ، وليس قيام المشكلة على هذا الوجه بمستحيل الحل فشيوع الثقافة وتيسير المعرفة لأبناء العربية على شكل عام كفيل برفع مستوى اللغة الى الحد الذي كانت عليه العربية في مختلف عصورها ، فلم يسلم عصر من عصور التاريخ اللغوي من ازدواج في اللغة ، وقد شاهد علماء العربية الأقدمون مثل الخليل بن أحمد وسيبويه والكسائي وعيسى بن عمر وغيرهم لغة عامية يستعملها جمهور الناس ، ولقد أثر عن الكسائي انه وضع رسالة في لحن العامة ولغة العامة غير لغة العلية فقد ذكر ابو هلال العسكري : ان العامي إذا كلمته بكلام العلية سخر منك وزرى عليك ، كما روى عن بعضهم أنه قال لبعض العامة : بم كنتم تنتقلون[2] البارحة ؟ فقال : « بالحمالين » ولو قال له : « ايش كان نقلكم لسلم من سخريته فينبغي أن يخاطب كل

---

(١) الجاحظ ، البخلاء (طبعة الحاجري) ص ٤٣

(٢) أي تأكلون النقل كاللوز والجوز والفستق

فريق بما يعرفون [1]

وربما كانت العامية الدارجة قريبة من الفصيحة لغة الكتابة ، وذلك بسلامة ابنيتها وبتخير ألفاظها الصحاح العربية ، ولكنها متحللة من ضوابط الاعراب ، فالمتكلمون بها يلتزمون الاسكان في جميع صورها ، وهذا ما نصبو إليه في تقريب العامية من الفصيح وسبيل هذا كما أسلفنا نشر المعرفة بين الناس والزمان كفيل بتحقيق هذا .

ابراهيم السامرائي

(١) أبو هلال العسكري كتاب الصناعتين (طبعة الاستانة) ص ٣٣